

وسط نسائه الغامضات

سلمان المالك

رسام تمتعه أنوثة الحياة

فاروق يوسف
كاتب عراقي



نادرا ما ينجح رسام الكاريكاتير في أن يكون رسام لوحات. هناك مسافة اختلاف تفصل بين النوعين الفنيين مكتظة بتقنيات التعبير والموضوع والهدف وحتى أدوات الرسم. كان المصري جورج بهجوري واحدا من أهم الناجحين في ذلك المجال. غير أن نسب نجاحه كانت متفاوتة بين مرحلة وأخرى. بهجوري هو الآخر بدأ في عدد من تجاربه الفنية وباللأخص في الرسوم الشخصية كما لو أنه يمزج من حيث لا يدري بين الفنيين.

منذ البدء لم يلجأ المالك إلى استلهام جماليات المفردات التراثية كما فعل الرسامون الذين سبقوه فانصب اهتمامه البصري على الإنسان، كتلة وحركة، من خلالهما حاول أن يلجأ إلى مناطق تعبيرية عميقة من غير أن يظهر أي اهتمام بالحكاية. في أعماله المبكرة ظهرت بعض المفردات التراثية التي ترمز إلى المرأة لكنها سرعان ما اختفت. كانت نوعا من الاستعارة التي لم يرغب في تطويرها لأنها تتناقض مع العالم الغنائي الذي انهمك في تأليف مساحاته من مزيج أسلوبية يجمع بين التجريد والتشخيص.

في لحظة ما شعر المالك أن غنى التعبير لا يُستمد من مفردة شعبية جاهزة. ذلك ما دفعه إلى أن يحرق كائناته الأنثوية من ملامحها مكتفيا بالإيحاء التعبيري الذي ينبعث من العلاقات اللونية المتدفقة التي صارت بمرور الوقت أكثر إشباعا وحضورا.

وباعتباره رساما صحافيا فقد برز الخط عنصرًا أساسيًا في لوحاته التي رسمها في تسعينات القرن الماضي أما في ما بعد فقد تلاشى الخط وصارت المساحات اللونية هي الأساس في تشكيل الكائن البشري ورسم حدوده والفصل بين منطقة وأخرى على سطح اللوحة. صار اللون عنصر انفصال واتصال بالنسبة إلى العلاقات بين تلك الكائنات التي تتميز برقتها وشفافيتها.

حياة بين الاستفهام والعاطفة

النساء أولاً. النساء أخيراً" يمكن للمالك أن يجيبك بذلك إذا ما سألته عن الموضوع الذي يسحره ويحاول من خلاله أن يكشف الأبعاد الخفية لطريقته في النظر إلى الواقع. بالنسبة إليه فإن المرأة هي الطبيعة التي يحاول من خلال الرسم أن يكشف أسرار جمالها. غير أن كل ذلك الانبهار بجماليات عالم المرأة لم يرافقه أي إيحاء بالغرائبية. لم تتميز المشاهد التي صورها الرسام بأي نوع من الحسية. كانت تلك المشاهد على درجة عالية من الرقة والحضور الإنساني بحيث يشعر المرء وهو يتأملها بأن الرسام إنما يرغب من خلالها في أن يبشّر بلذة وخفة وعذوبة العيش.

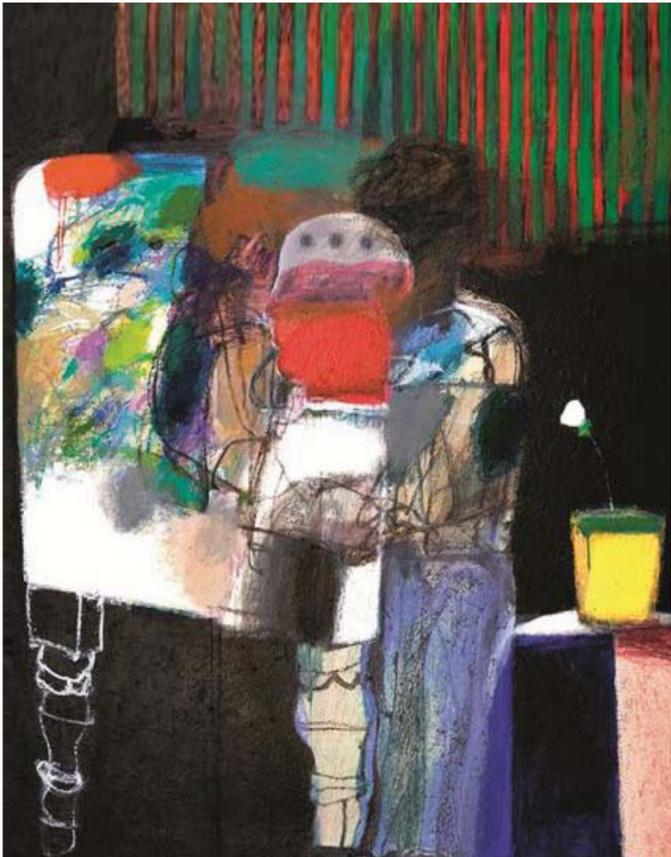
المالك هو رسام حياة أسرة. غموض كائناته التي يرسمها من غير ملامح لا يقف حائلا دون أن يتعاطف المتلقي معها. فهي بشكل أو بآخر تضرب على وتر حساس داخل روحه. إنها تدعوه إلى المشاركة في حفلة يغلب عليها الجانب العائلي. لم يرسم عاريات. من قال ذلك؟ كان هناك دائما عري روحي في رسوم المالك يدهش

لا يعني ذلك أن رسام اللوحات كان جادا فيما انزلت شخصية الرسام الساخر إلى الضحك العابت. المالك كما عرفته يقف في المكان الذي يعتقد أنه مناسب له. ليس أقل ولكنه يطمح إلى الأكثر. عمل سنوات طويلة في الهيئة العامة للشباب والرياضة مسؤولا عن مركز الإبداع الشبابي الذي كان حاضنة لغنائي المستقبل الذين هم اليوم سادة الحراك التشكيلي في قطر. من هذه النقطة الجوهرية يمكن التعرف على شخصية المالك.

كان ذلك هو دوره الرائد في الحياة التشكيلية. ماذا عن رسام اللوحات المنفصل عن صاحب الرسوم الصحافية الساخرة؟ لدى المالك حساسية لونية نادرة من جهة موهبتها في التقاط مواقع التأثير البصري. وكما اعتقد فإن ازدواجية ما يقوم به هي مصدر قلق له. هل ستكون دائما كذلك؟ ذلك سؤال سيطرده قبل وبعد أن يتعرف على نفسه.

الإنسان مجاله التعبيري

وُلد المالك في الدوحة عام 1958. درس الفن التشكيلي في كلية التربية الفنية بالقاهرة بين عامي 1978 و1982. حين عاد إلى قطر عمل مديرا فنيا لـ "الدوحة" واستمر في ذلك العمل حتى عام



لن يفاجئني أن المالك تغير كثيرا. فرسومه تحتكم أصلا إلى حساسيته المرتبطة بمزاج انقلابي. ذلك مزاج لا يثق بالمرئيات كما هي بل يسعى لإعادة خلقها بما يجعلها تتوافق مع الحالة الإنسانية التي يسعون لتصويرها. ما لا يري من العلاقات هو ما يحاول الرسام أن يمرره إلى المتلقي باعتباره الوجهة النهائية. سيكون هناك دائما حوار بين الرسام والمتلقي رسومه يلحق بعملية المشاهدة وهو حوار سيصل الطرفان من خلاله إلى حقيقة أن الرسم هو أشبه بعملية مراجعة للذات. لا تملك أن تقول رأبك قبل أن تنهي الإجابة على كل الأسئلة. يعرف المالك كيف يتعامل مع مشاهدته الاستفهاميين الذين شاركوه متعة أن تكون الحياة أنثى.

استلهام جماليات المفردات التراثية خيار لم يلجأ إليه المالك، كما فعل الرسامون الذين سبقوه. انصب اهتمامه البصري على الإنسان، كتلة وحركة الجانب الحسي الذي تستعرضه من غير حجاب إلا من أجل أن تصل إلى تشكّلها الداخلي، كيانا غير مسبوق في جهة استغراقه الحديسي.

إلا إلى جزء من الحكاية التي يعالجها تصويرا، ذلك الجزء العصي على الوصف القائم في توتره، العاكف على تشكيل ذاته من مادة حلمه. وإن تحيي رسومه منطقة تعبيرية كادت تنقرض في تاريخ حدثنا الفتيه بسبب الإهمال، لا تنتشئ قيمها الجمالية استنادا إلى ما تظهره، بل إلى ما تخفيه، سواء حدث ذلك عن قصد أو بشكل عفوي. ففي كل واقعة حسية يلتقطها المالك هناك نوع من الإنصات الغامض الذي يثير الانتباه ويشد الاهتمام إلى السر الذي يجعل هذه اللقاءات ممكنة وهي واقعا لقاءات ممنوعة، تكمن المتعة هنا في محاولة الرسام الإفصاح عن النبع الروحي الذي تصدر عنه فهي إذا لا تتماهى طويلا مع

المتلقي ويدفعه إلى الاستفهام. ولكنه استفهام تغلب عليه العاطفة. "هل تود أن ترى العاطفة مجسدة من خلال كائنات تجريدية؟" ذلك هو السؤال الذي يواجهه متلقي أعمال المالك. تظهر المرأة تجريديا فإنها تختصر المسافة بين امرأة وأخرى. وما من شيء يمت بصلة إلى الرمزية؛ المرأة التي يرسمها المالك ليست رمزا. إنها حالة؛ الحالة التي تجمع بين الحلم والواقع. تلك هي المرأة التي يستحضرها المالك تلقائيا. قبل أكثر من عشرين سنة كتبت مقدمة لكتيب ضم لوحاته قلت فيها "في تجربته الجديدة لا يحيلنا المالك



المالك أهم رسام كاريكاتير في بلاده، وقد نسي ذلك حين رسم اللوحة